

حبر على سترات بيضاء

وتحمل وفاة عدد من العلماء والفقهاء، بسبب الطاعون، ومن بينهم أبو سالم العياشي، صاحب الرحلة الشهيرة "ماء الموائد"، أكثر من دلالة على مستوى حجم وقوة هذه الأمراض والأوبئة، التي مست بشكل كبير، خلال الفترات المذكورة أو غيرها، النباتات الديموغرافية العامة للمغرب. وفي نفس السياق، انحصرت المؤلفات في مجال الأغذية والأشربة، حسب معجم ابن زيدان، في أربعة عناوين فقط. وبشكل مفارق لذلك، كان المجال نفسه موضوعاً لأكثر من ضعف هذا العدد من العناوين، على مستوى تناوله في إطار "فقه الاطعمة والأشربة"، وهو تناول هُـم أساساً تحريم السكر أو الرد على ذلك. ومن ذلك مؤلف في تحريم سكر القالب لأحمد بن عبدالمالك الشريف العلوي. وقد أشار المؤرخ عبدالرحمن ابن زيدان في كتابه "الإتحاف"، بخصوص دعوة هذا الأخير إلى تحريم السكر، إلى كونه "كان لا يقبل شهادة من بشره"، بدعوى أن "ما جُهِل حكمه يجب التوقف عنه". واستمرار لهذا الانحصار، لم يُسأَر الإهتمام بالطب، خصوصاً مع حلول القرن الثامن عشر، وتيرة التطورات التي عرفها الطب الغربي تحديداً. ويُعتبر في هذا السياق، واقع تدريس الطب، خلال تلك المرحلة، أحد تجليات هذا الوضع. وهُـم ذلك، سواء جامعة القرويين، أو غيرها من المراكز، سواء داخل مدينة فاس، أو خارجها. أما فيما يتعلق بالبعثات العلمية التي أرسلها، على نحو خاص، الحسن الأول، فلم يكن بإمكانها أن تخلق تحولا جذريا على مستوى الإهتمام بالطب. وذلك لاعتبارات ترتبط باهتمام أغلب هذه البعثات بالصناعات العسكرية البسيطة، وبمحدودية عدد المستفيدين منها، حيث ضمت البعثة، التي تم إرسالها خلال نهاية القرن التاسع عشر والموجهة إلى جبل طارق، طالبا واحدا لتعلم الطب.

حسن الوزاني
كاتب مغربي

بخلاف الحديث عن تراجع البحث العلمي في العالم العربي، تبدو كثير من الأرقام التي تهم منجزات هذا البحث مذهشة. ولعل آخر هذه الأرقام هي التي تحملها دراسة الباحثة المغربية حنان الغول والتي تخصص الإنتاج العلمي على مستوى الإنتاج في مجال الطب بالمغرب، من خلال نموذج كلية الطب والصيدلة بمدينة الدار البيضاء. وهي المعطيات التي تؤكد تغطية أكثر من سبعين في المئة من إنتاج باحثي الكلية من طرف قواعد المعطيات الدولية المحكمة. والحقيقة أن علاقة المغاربة، والعرب بشكل أعم، بالكتابة في مجال الطب ليست جديدة. وإن كان التأليف في المجال قد عاش لحظات مشرقة عرفت كثافة على مستوى الأعمال، ولحظات أخرى، اتسمت بالانحصار. ويرسم الباحث عبدالعزيز بن عبدالله في دراسته "طبقات الأطباء بالمغرب الأقصى"، صورة مشرقة عن واقع ممارسة الطب والكتابة عنه بالمغرب الأقصى، خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، باعتبارهما أول لحظات الإزدهار التي عرفها المجال. وهي اللحظات التي اتسمت بإسهام عدد من الأسماء الأندلسية في مجال الطب، ومن بينها بشكل أساس، ابن جليل، الذي عزب مفردات الطبيب اليوناني ديسقوريدس، وعبدالمك بن حبيب السلبي القرطبي، صاحب مختصر في الطب. كما شكل حلول مجموعة من علماء الأندلس، خلال فترة لاحقة، أحد العوامل التي كانت وراء لحظة مشرقة عرفها عهد دولة المرينيين على مستوى علم الطب. وهي حركة تكمن إحدى أهم علاماتها في ظهور عدد هام من الأطباء المغاربة، ومنهم أبو العباس الشريشي السلولي، وابن البنا الأزدي المراكشي. واستعاد الإهتمام بعلم الطب بعض حضوره خلال عهد السعديين، وذلك بعد لحظات أقول. وتكمن أهم مؤشرات ذلك في كاتر عدد الأطباء والصيدال، "حتى كان لهم رئيس يرجعون إليه في الشؤون الفنية، ويرخص للمتخرجين الجدد بمزاولة التطبيب والعلاج بعد الإختبار والتنقيب"، حسب الباحث محمد حجي.

كما تجلت هذه المظاهر من خلال تحقيق تراكم هام على مستوى التأليف، كان من علاماته ظهور أعمال أبي القاسم الوزير الغساني، صاحب الرحلة الشهيرة "رحلة الوزير في افكناك الأسير"، ومن بينها معجمه النباتي "حديقة الأزهار في شرح ماهية الشجوب والعقار". وبالرغم من هذه اللحظات المشرقة، لم يكن التأليف في مجال الطب يستطیع أن يساير دائما التحولات التي كان من علاماته ظهور أعمال أبي القاسم الوزير الغساني، صاحب الرحلة الشهيرة "رحلة الوزير في افكناك الأسير"، ومن بينها معجمه النباتي "حديقة الأزهار في شرح ماهية الشجوب والعقار". وبالرغم من هذه اللحظات المشرقة، لم يكن التأليف في مجال الطب يستطیع أن يساير دائما التحولات التي كان من علاماته ظهور أعمال أبي القاسم الوزير الغساني، صاحب الرحلة الشهيرة "رحلة الوزير في افكناك الأسير"، ومن بينها معجمه النباتي "حديقة الأزهار في شرح ماهية الشجوب والعقار". وبالرغم من هذه اللحظات المشرقة، لم يكن التأليف في مجال الطب يستطیع أن يساير دائما التحولات التي كان من علاماته ظهور أعمال أبي القاسم الوزير الغساني، صاحب الرحلة الشهيرة "رحلة الوزير في افكناك الأسير"، ومن بينها معجمه النباتي "حديقة الأزهار في شرح ماهية الشجوب والعقار". وبالرغم من هذه اللحظات المشرقة، لم يكن التأليف في مجال الطب يستطیع أن يساير دائما التحولات التي كان من علاماته ظهور أعمال أبي القاسم الوزير الغساني، صاحب الرحلة الشهيرة "رحلة الوزير في افكناك الأسير"، ومن بينها معجمه النباتي "حديقة الأزهار في شرح ماهية الشجوب والعقار".

علاقة المغاربة، والعرب بشكل أعم، بالكتابة في مجال الطب ليست جديدة. لكن التأليف انحصر تماما في هذا المجال

بينما سيُصِغ المغرب لحظة دخول الطباعة باعتبارها فرصة لتوسيع مجال التأليف في الطب، حيث لم يتجاوز ما صدر في المجال، ما بين نهاية القرن التاسع عشر وخمسينيات القرن الماضي، عشرة مؤلفات. وهو ما يرتبط بشكل أساسي باختيارات توظيف الطباعة، والتي قادها أساسا هاجس ترسيخ الثقافة الدينية. يَحْتَزِل أحمد بن محمد الصبيحي، في كتابه "أصول أسباب الرقي الحقيقي"، الصادر في بداية القرن العشرين، وضعية تراجع الإهتمام بالطب والكتابة فيه، خلال المرحلة، بشكل دال: "أهملنا الطب الذي هو علم الأبدان المحتاج إليه في كل الأزمان وبقية العلوم، مع أنها جميعها قد اعتنى بها علماء الإسلام والفوا فيها التأليف البديعة في نفسها وباعتبار وقتها. قلت في نفسها وباعتبار وقتها لأن بعض العلوم السابقة كالطبيعية والرياضية والاستعمارية (كذا) قد مَهر فيه الأورباويون (...). ولكن اللوم ليس عليهم، وإنما اللوم علينا نحن معشر خلفهم الذين لم نبال بهم مبالاةهم فنبني على ما أسسوه وننقحه التنقيح الذي عندنا من وسائله ما لم يكن عندهم".



لم يعد هناك تأليف طبي عربي

حفيد يتخلص من وصايا جده بعد انهيار العائلة

«وصايا» عادل عصمت رواية أجيال تسرد تاريخ بلد



انقلاب الأجيال على بعضها البعض (لوحة للفنان حاتم المكي)

العام، حيث النكسات التي مزّت بها الأمة العربية، وهو ما يعني أن الراوي سعى إلى الربط بين انهيار الخارج وأزماته، وأزمات الداخل. يتخذ الراوي الذي كان في الثامنة عشرة من عمره في ذلك الوقت، من هذا التاريخ نقطة استعادة لماضي العائلة التي عاشت فترة عصيبة. وقد عنون لكل فصل من الفصول بوصية من وصايا الجد لحفيده، هكذا: خلاصك في مشقتك، إياك والعمى، المتعة عابرة كالحياء، كن يقظا وقت الأفراح، الثروة مثل الدابة عليك أن تسوقها، احذر أن تقتل أخاك، الأحران سمود القلب، تحمل الأسم، المحبة دواء أيام الباطل، أعظم الفضائل في الخلق.

التعامل مع الحياة

في الرواية عالم القرية حاضر، ويستعيد الكاتب بكل الفقه، وبإوصافه التي ينسجها على الشخصيات، فنية زوجة علي سليم "طويلة لونها مثل لون الفصح أو أن النضج، ملامحها دقيقة، وجعها نحيل، سواد عينيها داكن يظهر عمقه عندما تغضب، ويشع كأنه ضوء على امرأة"، وعلي سليم في مرضه أحسن أنه "مثل عود ذرة ناشف".

يتميز نص الوصايا بلغة محليّة بامتياز، بدلالتها التي لا تفارق واقعها، ولغة حية نابضة بعفوية الأداء في المشهد الذي قيلت فيه، تستخدمها في حياتنا؛ في غضبنا وفرحنا، ومن هذا عندما غضب نعيم على زوجته سعاد قال لها "قومي انجري روجي واوعي تعتبي الدار مرة ثانية".

تبرز في الوصايا علاقة الفلاح بالأرض، وهي علاقة تلازم ظاهر بصورة لافتة، فعندما تدور الحكايات عن سعد الذي بدأ الأرض خلف الرقاصات يقول الحاج قرشي للشيخ عبدالرحمن "أنت لن تُفرط في شبر من الأرض ولو قطعوك". فالأرض بالنسبة لهم هي النقود. فالنقود هي الأرض والحياة معا، كما ذكر الشيخ. وفي فترة الشيخ الأخيرة راح يتردد على الأرض، وعندما سئل من قبل فاطمة عن سبب تكرار الزيارة بعدما أصابت هذه الزيارات الجميع بالاندماش أجاب قائلا "إنه يجد راحته هناك"، فعلى حد قوله الأرض "تفهم أكثر من الناس". وعندما يمر الشيخ على الأرض ويرى ما أصاب محصول القطن من انتشار الدود، تزداد

فكرة الخلاص أو التحرر واحدة من الأفكار التي اشتغل عليها الكاتب المصري عادل عصمت في الكثير من أعماله، وهو ما رأينا عليه شخصيته يوسف تادرس في رواية "حكاية يوسف تادرس" حيث كان تائهاً وراح يبحث عن خلاص ذاته، إلى أن اكتشفه بعد سلسلة من الإخفاقات في الحب. أو ما سعت إليه شخصية ريم بطلة رواية "حالات ريم"، فوجدته في الطلاق من زوجها، وهو الأمر الذي يستمر مع روايته الأخيرة "الوصايا".

وصولا إلى العقد الأول من الألفية الثالثة، وفيها يقطع الشيخ عبدالرحمن السبعين من عمره. ومن ثم نلاحظ التحولات في عالم الأسرة؛ حيث يأخذ عالم الشيخ عبدالرحمن في التهاوي تدريجيا، لأنه ظل متعلقا بالمفاهيم القديمة، على الرغم من حركة التطورات التي كانت تمر أمامه، ولم يلتفت إليها، وأبرزها أن سلطة المال التي كانت في يد نبيه زوجة علي سليم، بما تمتلكه من مهارات، مكنتها خلال فترة قصيرة ودون أن تطلب، من أن تصبح مركز "تيسير الأعمال في الدار" وهي بالطبع معرفة حياتية، زحزحتها سلطة العلم، التي امتلكها نعيم بحكم دراسته.

ثم ظهرت بصورة جلية في الرغبة في الانفصال من سطوة المكان، وهي محاولات بدأت تدريجيا، وإرسال إشارات أولاها تمرد علي سليم، ثم استطاع الشيخ احتواء أزمة ابن أخيه، وبعدها ابنه الشيخ صالح الذي رفض الزواج من فادية بنت علي سليم، ثم جاءت موافقته لاحقا خشية أن يعصى أباه، وهو ما تحقق بصورة لافتة بزواج نعيم بسعاد مدرسة العلوم، التي كانت تخرج بملابس مدنية، ثم ثورتها للانفصال.

كل هذا كان يشير إلى انزواء عالم الشيخ القديم، وهو ما تأكد بعد بناء البيت الجديد؛ حيث رفض الشيخ الإقامة في البيت وأحس بغربة، وفر إلى شرفة الست كوتر، بما يمكنه لها من حبّ خفي، رفض الاعتراف به، ولم يأت الاعتراف به إلا في محنة مرضها.

تبدأ الرواية بتاريخ مفصلي في حياة العائلة، هو الأربعة 20 ديسمبر 1978. على الرغم من أن أحداث الرواية بعد هذا الاستهلال ستوغل في الإرتداد إلى التاريخ حيث يعود إلى أوائل العشرينات، ساردا عن حكاية بيت سليم، وما حياق بأفراد العائلة. لكن التاريخ المسجل كعتبة عنوان خارجي، لا نصل إليه إلا في نهاية القسم الأول من الرواية، وهو يمثل تاريخ وفاة الجد بعد فترة العزلة التي قضاه في غرفته لمدة تسعة أيام، بعد حادثة النساء الشهيرة، التي جاءت تأكيداً على انهيار عالمه. تواريخ العائلة تتوازي مع التاريخ

مصموم فراج النابلي
كاتب مصري

تستمر فكرة السعي إلى الخلاص في الرواية الأخيرة للكاتب المصري عادل عصمت والتي جاءت بعنوان "الوصايا"، على نحو ما سعى بطل الرواية صالح سليم إلى الخلاص من وصايا العائلة تماما.

الرواية لا تتوقف عند التغيرات التي حلت بداخل أسرة سليم وتشتتها، وإنما ترصد أيضا التطورات في المجتمع

البطل لم يحقق الخلاص من هذه الوصايا فقط من خلال هجرته وطيرانه الدائم خارج المكان، بل بما فعله في نهاية حياته، حيث كتب في وصيته بالآي يُدفن في مداخل العائلة، وهو ما سبّب أزمة حادة لأخته فاطمة، عندما رفض ابنه مصطفى أن يحضر الجثة إلى البلد. والصورة الأكثر تعبيراً عن هذا الانفصال هي حذف اسم عائلة سليم من على المقبرة، وهو ما راه الراوي الذي كان يصفه الجد بالساقط وحمد الله أن عمته فاطمة لم تر.

رواية الأجيال

رواية "الوصايا"، الصادرة عن الكُتِبَ خان والتي بلغت القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية في دورتها لهذا العام، تنتمي إلى روايات الأجيال، وهي تيمة متحركة بصورة لافتة في الرواية المصرية. في ظني أن الكثير من كتابات عادل عصمت الروائية، تدور حول هذه الفكرة، حيث سعى الأجيال الجديدة إلى كسر الأبوية المفروضة من هيراركية الحكم داخل الأسرة. الإطار الزمني للرواية يبدأ من عشرينيات القرن الماضي،